## بلاد المغرب القديم – البنية الطبيعية والتركيبة البشرية –

**1- البنية الطبيعية:**

**أ- الموقع الطبيعي والفلكي:** تقع بلاد المغرب القديم شمال القارة الإفريقية محصورة بين غربي نهر النيل شرقا والبحر المتوسط شمالا و المحيط الأطلسي غربا والصحراء الكبرى جنوبا[1]، و هي المنطقة التي تقابل السواحل الجنوبية لدول جنوب غرب أوروبا ابتداءا من البرتغال فإسبانيا على مضيق جبل طارق حتى بلاد اليونان في القسم الشمالي الشرقي للبحر المتوسط، تنحصر المنطقة بين دائرتي عرض 18°و38° شمال خط الاستواء وبين خطي طول 25شرقا و 17 غرب خط غرينيتش .

تدخل الصحراء بما فيها الطاسيلي و الهقار ضمن بلاد المغرب أين تشكلت محطات الانتشار البشري الذي زحف شمالا لتعمير بلاد المغرب أثناء العصر الحجري الحديث ( النيوليتي ) والذي عرف فيه الإنسان أوج تقدمه في عصور ما قبل التاريخ انطلاقا من الصحراء[3] ، التي بدأت تعرف الجفاف تدريجيا منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد و بدأ مع ذلك نزوح المجموعات البشرية نحو الشمال فرارا من الجدب واستقر بعضها في مناطق محدودة من واحات الصحراء التي وإن كانت تتوغل جنوبا حتى نهر النيجر، فإنها تلامس البحر المتوسط في الشمال، خاصة عند الساحل الليبي حول خليج سرت .

كانت الصحراء تبدو فاصلة لبلاد المغرب عن بقية القارة الإفريقية، إلا أنها شكلت قديما همزة وصل وطيدة، خاصة أن ظروف المناخ و الغطاء النباتي في القديم كانت مغايرة لظروف الصحراء في الوقت الحاضر، إذْ أن وجود المجاري المائية وإن كانت جافة فهي دليل على أنها كانت تنال كمية أكبر من الأمطار مما هي عليه الآن،لأن درجة الرطوبة كانت أكثر ارتفاعا[5].

تكون بذلك بلاد المغرب شديدة القرب من القارة الأوروبية و لا يفصلها عن شبه الجزيرة الايبرية سوى مضيق جبل طارق (أعمدة هرقل) بـ ثلاثة عشر كلم ، وعن إيطاليا عبر مضيق صقلية بمائة واربعون كلم ،كما لا تفصل سواحل برقة الليبية جزيرة كريت اليونانية سوى مسافة ثلاث مائة كلم ، و من جهة أخرى تطل بلاد المغرب على المحيط الأطلسي الذي سهل تواصلها مع غرب وشمال أوروبا وكذلك مع سواحل إفريقيا الغربية .

أطلقت عدة تسميات على منطقة بلاد المغرب القديم قبل هذه التسمية التي تعتبر حديثة بالمقارنة بالأسماء التي عرفت بها المنطقة ، عرف المصريون بلاد المغرب وسكانها بأسماء عديدة وُجدت في النصوص الهيروغليفة المصرية القديمة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد، وهي: قبائل المشوش، والليبو، التمحو، التحنو، وهي قبائل ليبية كبرى تواجدت غرب النيل وتفاعلت مع أهله .

**ب- السطح**: إذا تأملنا في الخريطة الطبيعية لبلاد المغرب نجد تباينا بين الشمال و الصحراء، وإذا كانت ظاهرة الارتفاع تطغى على السطح في الجزء الشمالي (بلاد الأطلس) فإن ذلك لا يعني خلوها من السهول المتنوعة، وإذا كان التكوين الحديث يطغى على تضاريس الشمال، فإن الصحراء تنتمي إلى الهضبة الإفريقية قديمة التكوين ، وإذا تتبعنا تضاريس بلاد المغرب انطلاقا من الساحل نحو الداخل فإنه يمكننا التعرف على المظاهر التالية :

- **التضاريس** ( الجبال ، الهضاب ، السهول )

- **الجبال:** يُشكل الأطلس التلي والصحراوي هيكل التضاريس في شمال بلاد المغرب و هي موازية للساحل و تقف دون التوغل إلى الداخل فيما عدا مجاريها المائية التي يشكل تتبعها

منافذ ونقاط اتصال بين الساحل وداخل الإقليم ، حيث نجد أن الجبال في الغرب تحتل معظم مساحة البلاد إذ نُميز في الشمال جبال الريف التي تشكل قوسا يطل على البحر المتوسط ، ويتربع الأطلس الأوسط جنوبها ،أما الأطلس الكبير أو الأعلى فهو الأكثر ارتفاعا في بلاد المغرب، بينما يمتد الأطلس الصغير ذو التكوين القديم بالجنوب وينخفض باتجاه الغرب حيث نميز في الوسط سلسلتين جبليتيين .

السلسلة التلية وتُطل على البحر وتترك مجالا ضيقا للسهول الساحلية أو تصطدم بالبحر المتوسط تبدأ غربا بجبال تلمسان وفي جنوبها جبال الضاية وسعيدة ثم جبال الونشريس والظهرة و زكار التي تتميز بشدة التوائها، وتتواصل بجبال الأطلس البليدي ثم جرجرة ،ثم جبال البابور فجبال القُل ثم إيدوغ (بين عنابة وسكيكدة) وإلى الجنوب توازيها جبال التيطري، فالبيبان ثم جبال نوميديا وقسنطينة وسوق أهراس وتتخلل هذه السلسلة التلية سهول داخلية

أما السلسلة الأطلسية الصحراوية فتمتد جنوب الهضاب العليا في كتل موازية للأطلس التلي تقريبا ويمكن تقسيمها إلى : سلسلة الأطلس الصحراوي الغربية بها جبال القصور و عمور وأولاد نايل أما الشرقية فتتكون من جبال الأوراس والنمامشة وبين القسمين تضمر الجبال كثيرا فتبدو جبال الزاب، قبل أن تختفي عند عتبة بسكرة التي تسمّى عتبة الصحراء وهي ممر طبيعي بين الشمال و الجنوب ويعود الارتفاع فجْأة شرق بسكرة لتبدأ الأوراس وإذا كانت السلسلتان تتجهان متفرقتين من الغرب لتلتقيا في الشرق، فإن جبال الأطلس الأوسط في المغرب وجبال الحضنة في الجزائر تربط بين هاتين السلسلتين من الشمال إلى الجنوب لتحصر الهضاب العليا وتقسّمها إلى هضاب عليا غربية واسعة وشرقية ضيّقة وفي الشرق تلتقي السلسلة التلية متمثلة في جبال الخمير و مقعد، بالسلسلة الأطلسية متمثلة في جبال الظهرية و يتواصل التحام السلسلتين حتى الرأس الطيب حيث تنخفض لتصبح تِلالا لا يتعدى ارتفاعها 300 متر أما في ليبيا فلا يظهر أثر للسلاسل الجبلية الساحلية ماعدا في الشمال إذ تبدو كُتلا منفردة قريبة من الساحل وهي أقرب إلى الهضاب منها إلى الجبال ،وتتمثل في جبال نفوسة غربا والجبل الأخضر شرقا .

- **الهضاب:** تختلف فيما بينها من حيث الارتفاع الاتساع و التكوين :

حيث نُميز الهضبة المراكشية بين جبال الأطلس الأوسط والساحل الأطلسي جنوب نهر سِبو، وهي هضاب قديمة تغطيها صخور رسوبية يصل ارتفاعها إلى 1600 متر، كما نميز هضاب حوز مراكش و تادلة و الهضبة الشرقية التي تعتبر امتدادا للهضاب العليا في الجزائر،

وفي الوسط تمتد الهضاب العليا محصورة بين سلسلتي الأطلس التلي و الصحراوي بمتوسط ارتفاع يصل إلى 1000 متر وتمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على مسافة 800 كيلومتر وتنقسم إلى غربية واسعة وشرقية ضيقة ، وتتميز بوجود بحيرات ضحلة مالحة تعرف بالشطوط وهي : الشط الغربي و الشرقي و الحُضنة أما في الشرق فتمتد السباسب العليا والسفلى من جبال الظهرة منحدرة في اتجاه الشرق لتتواصل بسهل الساحل التونسي .

- **السهول** : يمكن تميز نوعين من السهول في الشمال **سهول ساحلية** و **أخرى داخلية** حيث:

تتميز السهول الساحلية بشساعتها وامتدادها بشكل كبير في الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى، وتكون وضيقة ومتقطعة بالجبال في الساحل المتوسطي وأهمها من الغرب إلى الشرق : ( سهول الساحل الأطلسي وهي سِبو و دوكالة والسوس، و سهول الشمال الساحلي المتوسطي: وهي وهران و متيجة و عنابة نجدها ضيقة ومتقطعة بالجبال، و سهول الشرق الساحلية المتوسطية: وهي ضيقة ومتقطعة في الشمال الشرقي مثل بنزرت بتونس ، لكنها أكثر اتساعا في الشرق ، سهول ليبيا الساحلية : أهمها سهول طرابلس و جفارة و البريقة ودرنة على خليج السرت ) ، و من حيث التكوين فإن هذه السهول رسوبية خصبة أغنتها التربة التي نقلتها الأمطار من الجبال المحاذية ويعود تكوينها إلى الزمن الجيولوجي الرابع .

أما السهول الداخلية تنحصر بين الجبال وهي أكثر ارتفاعا من السهول الساحلية أهمها من الغرب إلى الشرق: (سهول فاس، مكناس، مراكش وملوية العليا والسفلى بغرب بلاد المغرب الاقصى ، سهول تلمسان، تيارت ، سيدي بالعباس وعين بسام وقسنطينة في الوسط، سهول غار الدماء و باجة أو سهول الدخلة في الشمال الشرقي حيث يلتقي واد مجردة بواد ملاق)، وتتميز هذه السهول باستقرار تربتها ولكنها أقل خصوبة من السهول الساحلية .

أما تضاريس الصحراء إلى الجنوب من الأطلس الصحراوي، فتمتد الصحراء مشكلة عمق المجال المغاربي بتوغلها في القارة السمراء ويغلب عليها طابع الرتابة مع احتوائها لكل أشكال التضاريس:الأحواض و المنخفضات و هي مساحات شاسعة تغطيها الكثبان الرملية ترسبت بفعل الحت ـ والنقل أهمها العرق الشرقي والعرق الغربي وعرق مرزوق أما السهول الصحراوية وتسمى الرق و يغطيها الحصى نتيجة الرواسب الصخرية بسبب السّيول الجارفة قديما .

أما الهضاب الصحراوية تشغل أكبر مساحة من الصحراء وهي نوعان: الحمادة وهي هضاب جيرية تنحدر من سفوح الأطلس الصحراوي الجنوبية مثل تادمايت و قير والحمادة الحمراء، و هضاب رملية مثل الطاسيلي حفرتها الرياح عن طريق الحت

أما الجبال فنجدها تشغل مساحة قليلة وهي بركانية قديمة التكوين على شكل قباب بالورية فوق سطح هضاب أقديمة بدورها ، أهمها الهقار وجبل العوينات وجبال تبستي بليبيا .

- **المناخ والنبات :** تأثر مجموعة من العوامل في مناخ بلاد المغرب مثل الموقع الفلكي والجغرافي،التضاريس المتمثلة في جبال الشمال وامتداد الصحراء في الجنوب، اختلاف مراكز الضغط الجوي ،وأثر الرياح الدائمة، الأمر الذي يجعل مناخ بلاد المغرب متجاذبا بين الرطوبة والجفاف فنميز به فروقا مناخية بين الشمال والجنوب فيتزايد التساقط بالاتجاه شمالا نحو المناطق الساحلية عموما ويتناقص بالاتجاه نحو الداخل ليسود المناخ القاري، وفي الجنوب يزداد المناخ تطرفا لانعدام المسطحات المائية والغطاء النباتي، إذ يعتبر الجفاف أهم ظواهر الصحراء لأنه هو الذي أنتجها، أما اختلاف الحرارة فيتمثل في اتساع المدى الحراري كلما ابتعدنا عن الساحل وتوغلنا داخل القارة ليبلغ التطرف الحراري مداهُ في أعماق الصحراء التي تهب منها رياح السموم نحو الشمال منذ أواخر الربيع .

يتجلى الاختلاف وسوء التوزيع في كمية الأمطار التي تتلقاها بلاد المغرب، فإذا كان غربها يتلقى أكبر الكميات بفعل المحيط الأطلسي والرياح الغربية والشمالية الغربية فإن مناطق الوسط والشرق، بالإضافة إلى ليبيا، تتلقى كميات أقل وهي محصورة في المناطق الشمالية وخصوصا الساحلية منها، وقد انعكس هذا الاختلاف على المياه الجارية ، ففي حين نجد أن وديان الجهة الغربية هي أشبه بالأنهار فإن أودية الوسط و الشرق تتراوح بين الجريان شتاءا والجفاف صيفا أما أودية الصحراء فهي نادرة الجريان وتعرف بالأودية الكاذبة .

و يبرز تأثير المناخ في تنوع الغطاء النباتي ببلاد المغرب الذي يتدرج من الغابات المتنوعة في جبال الأطلس، إلى الحشائش في إقليم الهضاب العليا La steppe إلى النباتات القصيرة والمتباعدة في بعض مناطق الصحراء مثل منخفضات العرق ، حيث انعكست كميات التساقط على الغطاء النباتي الذي كان أكثر كثافة بكل مكوناته المتنوعة والمعروفة حاليا من غابات وأحراش وحشائش بالإضافة إلى أن الأنواع النباتية لم تكن مختلفة كثيرا عما هي عليه حاليا.

أما الأمطار فقد كانت في الشمال مثل عهدنا متذبذبة وغير منتظمة، ويتملك القلق المزارعين في انتظارها إذا تأخرت فيلجئون إلى معبوداتهم المختلفة متوسلين إليها لتمُنّ عليهم بالمطر، وقد كانت المياه نفسها محل عبادة عند الإنسان المغاربي القديم لأنها أساس الخصوبة والضامن لبقاء الإنسان ونمو الزرع و الضرع ، وفي الصحراء كانت الأمطار نادرة ولكنها حين تهطل تكون على شكل وابل يكفي ليملأ الأودية الكاذبة وتفيض فتدمر ما حولها .

**- الثروة المائية و الحيوانية :**

انعكس التساقط على المياه الجارية في أودية الشمال التي يمكن أن نطلق على بعظها صفة النهر وخاصة أودية المغرب الأقصى التي يصلح بعضها للملاحة في بعض أجزائها مثل: واد سيبوبوس( واد سبو) ويعود ذلك لتلقيها مياه الثلوج المذابة التي تشكل موردا دائما من قمم جبال الأطلس .

أما الثروة الحيوانية فقد كانت الحيوانات البرية متنوعة إذ عجّت البلاد بالطرائد المختلفة وإن كانت الحيوانات قد تناقصت بفعل الانقلاب البيئي الذي حدث في الصحراء وقد كانت الحيوانات المتوحشة الكبيرة مصدر خوف لأنها كانت أخطر ما يهدد حياة السكان أما الحيوانات الصغيرة فقد شكلت موردا للقنص حتى مع امتهان المغاربة لحرفة الرعي باعتبارها من أهم الموارد الرئيسية للغذاء .

يمكن القول أن البيئة المغاربية كانت بفضل عناصر مناخها من حرارة وتساقط ومياهها الجارية وغطاءها النباتي ،قد شكلت وسطا ملائما للتواجد البشري وتطوره وهذا ما أهلها لتكون من أكبر محطات التواجد البشري منذ بدايات التاريخ في الفضاء المتوسطي.

**2- التركيبة البشرية :**

1- **أصل التسمية :** أطلق المؤرخون تسميات عديدة للدلالة على بلاد المغرب القديم منها ليبيا، إفريقيا، البربر، الأمازيغ حيث تختلف هذه التسميات في تاريخ ظهورها، استعمالها وفي تطور مدلولها التاريخي، سنحاول إعطاء لمحة عامة عن التسميات التي أطلقت على بلاد المغرب القديم وعلى سكانه من خلال المصادر:

**- ليبيا أو لوبة libyca:** يعود مصطلح ليبيا أو الليبو إلى الجذر "ليبو " (L.B.W) ، وقد ورد في النصوص الهيروغليفية ليدل على الشعوب التي كانت تقطن غرب نهر النيل، وتكون المصادر

المصرية هي أقدم الشواهد على هذه التسمية ليبيا أو لوبا ، كما ذكرت المصادر الفرعونية الشعوب الغازية لمصر ومن بينها الليبيون والمقصود هنا السكان الذين يستقرون غرب النيل.

كما ورد اسم الليبيين في التوراة كمحاربين في جيش " شيشنق ضد الملك " رحبعام (ابن الملك النبي سليمان ابن داوود) حيث جاء في سفر الوقائع أن الليبيين حاربوا ضمن جيوش الفراعنة ضد الملك رحبعام .

وقد وردت تسمية " ليبيا و الليبيين " كثيرا في المصادر الإغريقية، حيث تغنى شعراؤهم منذ أيام هوميروس بخيرات ليبيا، فكان البحارة الإيجيون والكريتيون يطلقون على السكان المحاذين للشاطئ المتوسطي اسم "ليبوس(libus) حيث ذكر هوميروس ليبيا و أهلها الذين يطغى على نشاطهم تربية الأغنام .

و ذكر هيرودوت(Hérodote) أن لوبا أو ليبيا هي القارة الثالثة من قارات العالم القديم بعد أوروبا وآسيا مؤكّدا وحدة الأرض و السكان حيث يقول: " فساحل ليبيا الشمالي من مصر حتى رأس صوليس Cap Soleis الذي هو نهاية ليبيا، تسكنه قبائل كثيرة من الليبيين على طول امتداده، عدا الجزء الواقع في يد الإغريق و الفينيقيين .

واستخدم بلينوس الكبير Pline l'ancien مصطلح " الليبيين" للإشارة إلى سكان شمال إفريقيا بوصف المنتجات الليبية التي تشتهر بها المنطقة .

وذكر سالوست (Salluste) سكان بلاد المغرب فقال " إن أول سكان إفريقيا الجيتوليون والليبيون وهم قوم متعجرفون يتغذون على الحيوانات المتوحشة أو حشائش الحقول على طريقة القطعان" ، غير أن حكم ساليست على سكان بلاد المغرب فهم غير صحيح ولا مبرر له له سوى النظرة الاستعمارية المتجذرة في الشعوب الأوروبية القديمة عن الشعوب الأخرى .

كما تكلم فرجيل (Virgile) الذي ذكر ليبيا والدببة الليبية في ملحمته الأُنياذة ، وأورد المؤرخ المؤرخ جوستان (Justin) مصطلح ليبيا في ذكره لهجرة الفينيقيين إلى ساحل المتوسط الجنوبي الغربي أي شمال إفريقيا موطن الليبيين .

و عثر أيضا في النقوش البونية والبونية الجديدة استخدام تسمية ليبيا ، حيث كتبت على شكل .LBT / LBY على نصب في صلامبو و في معبد الحفرة و على نقش ليبي - بوني في مكثر بمعنى " في بلاد الليبيين " ، كذلك كتب الاسم على نقش آخر بإقليم طرابلس ما محتواه " رئيس الجيوش في بلاد الليبيين " ومنذ أواخر القرن الثالث ق م بدأ يتراجع استعمال تسمية ليبيا و الليبيين ليستبدل بتسمية جديدة هي " إفريقيا.

قد يكون أصل مصطلح ليبيا مقتبسا من اسم ملكة (اسما لملكة) لوبية أو ليبية قد حكمت شعبا غرب النيل حسب أسطورة أوردها االمؤرخ واللغوي علي فهمي خشيم الذي يعتقد بأن الاسم قد يكون ساميا إذ اشتُقّ من كلمة لبؤة أي أنثى الأسد ثم عُمم على المنطقة التي أصبحت تعني أرض الأسود .

- **إفريقيا Africa:** وهي التسمية الأولى التي استعملها الرومان و أطلقوها في البداية على أملاك الدولة القرطاجية، فقد لقّب سيبيون بالإفريقي Africanus Scipion ،كما وصف كاتو Cato في مرافعته لإقناع مجلس الشيوخ الروماني بضرورة تدمير قرطاجة التين الذي حمله منها بالتين الإفريقي Ficos Africanus ، ثم اتسع مدلول التسمية تدريجيا ليشمل كل الشمال الإفريقي من طرابلس حتى المحيط الأطلسي ، ثمّ أطلق على كامل القارة الإفريقية .

أما أصل تسمية افريقيا يمكن أن تكون مشتقة من جذر ليبي تفرعت منه كلمات عديدة من إفري Ifri التي تعني الكهف ، و أفر Afer تعني سكان الكهوف، و إفرو Ifru وهو اله محلي ورد اسمه على نقيشة كتبت باللاتينية وجدت بسيرتا .

- **البربر berbère:** أول من استعمل هذا المصطلح وساهم في انتشاره هم العرب المسلمين الذين سمو المنطقة وسكانها بالبربر les berbères ، يذكر ابن خلدون أن البربر ينتسبون إلى جدهم الأول إفريقش الذي قال عندما سمعهم يتحدثون ما "أكثر بربرتكم " بمعنى كثرة

الأصوات غير المفهومة، ومنها جاء مصطلح البربر وهذه التسمية تختلف في أصلها و مدلولها و تاريخ استعمالها عن مصطلح باربار Barbars المشتقة من الكلمة اللاتينية Barbarus بمعنى همجي والتي أطلقها الرومان للدلالة على الأهالي الذين بقوا مستعصيين على الحضارة اللاتينية وهم شعوب أوروبا القديمة .

- **الأمازيغ Mazigh:** هو اسم أطلقه المغاربة القدامى على أنفسهم وهو جمع ومفرده إيمازيغ ومؤنثه تمازيغت ومعناه الأحرار أو النبلاء، وجذر هذا المصطلح MZK أو MZG و الذي جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى اعتباره الاسم الحقيقي لبلاد المغرب نظرا لتواجده في العديد من أسماء القبائل وفي عدة مناطق من بلاد المغرب .

وإذا كان مصطلح مازيغ MZK أوMZG قد تعددت أشكاله في بلاد المغرب نفسها فمصدره نفس الجذر وله دلالة واحدة، ففي غرب فزان هو نفسه " إيموزاغ Imusagh وفي القبائل والريف والأطلس نجد إمازيغن Imazighen وفي الهقار عند الطوارق نجد إيموشار[4] Imoshar

أما ابن خلدون فقد نسب سكان بلاد المغرب القديم إلى أبيهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام .

**2- أصل السكان :** ذكر هيرودوت أن الليبيين الذين يعيشون في قارة ليبيا مع الأثيوبيين في جنوبها أصليون، أما الفينيقيين و الإغريق فهم وافدون، وقد صنفهم على أساس نمط معيشتهم إلى ليبيين رعاة متنقلين وهم يشكّلون قبائل عديدة تعيش في المنطقة الممتدة بين مصر شرقا و بحيرة تريتون غربا ، أما الليبيين المزارعين ساكني البيوت فينتشرون في المنطقة الممتدة غرب بحيرة تريتون حتى رأس سولويس المطل على المحيط الأطلسي .

وذكر ساليست salluste ان الليبيين مع الجيتول من سكان إفريقيا الأصليين أما الميديين و الأرمن و الفرس الذين جاؤوا من اسبانيا بعد موت قائدهم هرقل ، فامتزج الميديون و الأرمن بالليبيين وهم النوميد ، بينما امتزج الفرس بالجيتول وهم المور .

هناك من يرى إمكانية تصنيف البربر كحاميين ساميين وهم سكان البحر المتوسط تنوعت عنهم السلالة الصحراوية بينما تمثل السلالة الإثيوبية منهم صفات وسطية .

ومن الجانب الأثري والأنثربولوجي لا يستبعد الكثير من الباحثين أن يكون الليبيون والبربر من أصل إنسان مشتى العربي و الإنسان القفصي الذين وجدا في المنطقة منذ عصر الحجارة المصقولة و عاشا فيها طوال فترة العصر الحجري القديم الأعلى و العصر الحجري الحديث[2] ، ، ففي العهد القفصي اكتسحت أقوام من جنس المتوسط شمال إفريقيا والتحق بهم صحراويون رُحّل وبعض الزنوج بأعداد قليلة، ومن الممكن أن الاختلاط العرقي خلال العصر الحجري الحديث وما تلاه قد طبع سكان بلاد المغرب القديم .